إدوارد لويس

حوار

سيد درويش والموسيقى العربية الجديدة

١١

السنة الثانية ، العددان الخامس والسادس

سيّد درويش
والموسيقى العربية الحديثة

ادوارد لويس

« أنا لا أقل عن فيردي . أنا فيردي مصر » .

بمثل هذه العبارة اجاب سيد درويش بعض الاصدقاء الذين لفتوا نظره في احدى الأمسيات الى الشبه الغريب بين شكل جمجمته وجمجمة صاحب « عايدة » .

لقد كان غيوراً على فنه لدرجة انه ارتقى في احد الايام خشبة احد الملاهي لتوجيه لكمة الى مغنٍ تجرأ على تحوير بعض ألحانه . وكان واثقاً بنفسه لدرجة انه طلب مبلغ الف جنيه على تلحين اوبريت اضطر معه على ما يظهر الى السفر لأوربا لوضعه في الجو المناسب . انه ، بكلمة ، ظاهرة طبيعية بين عدة ظواهر نموذجية في شرق متوتر منكمش على نفسه يحتوي على خليط عجيب من البشر ؛ ومع ذلك فان الموسيقار سيد درويش هو مجهول من قبل الاوربي الذي يعتقد بأنه يعرف جيداً فترة ما بين الحربين في مصر . غير ان بلاده قد كرمته في جميع المناسبات ، وهي لا تزال تكرم ذكراه .

توفي الموسيقار سيد درويش في الاسكندرية سنة ١٩٢٣ ، في اثناء استعداده للاحتفال بعودة الزعيم المحبب سعد زغلول المظفرة . والواقع ان سيد درويش الغريب والمتطرف كالعصر الذي عاش فيه والشعب الذي انبثق عنه ، لم يتلق العلوم الموسيقية على احد ، واضطر حتى أواخر ايامه للالتجاء الى احد اصدقائه لكتابة الحانه .

ان الشيخ سيد درويش بنبوغه وثقته بنفسه يعتبر مرحلة في هذا الانقلاب الهائل الشاق الذي يتمثل في النهضة العلمية للشعب المصري . فقد نفخ في موسيقى بلاده روحاً جديدة كل الجدة ، واستطاع ان يرتفع بها الى مستوى يتمكن معه المرء من ان يعبر عن عواطفه ونزعاته بواسطتها .

في سنة ١٨٩٢ كان عهد ولاية اللورد كرومر ما يزال قائماً . ومع ذلك فان مصطفى كامل في الثامنة عشرة من عمره (وهو نضج مفرط في التبكير) كان يترأس حزباً سياسياً ويقوم بجولات في فرنسا يحاضر في اثنائها للمطالبة بحقوق بلاده .

وكما فعل المطربشون ، رفع اصحاب العمة رؤوسهم . وتابع الشيخ محمد عبده بجرأة نادرة عمله الاصلاحي في جامعة الازهر قلب العالم الاسلامي المتجمد . غير انه لم يحن الوقت بالنسبة الى الطبقات الدنيا من الشعب لكي تتحمس بتأثير الموجات المتعاظمة من الافكار التقدمية التي تتضمنها خطب رؤساء الاحزاب . ولكن بامكاننا الافتراض بان وجود فرق اجنبية بصورة مستمرة على الاراضي المصرية لا يدعه عديم الاكتراث تماماً ، وخاصة في الاسكندرية في حي كوم الدكة حيث تقوم قلعة «الطبيعة» التي حولها الانكليز الى ثكنة تشرف على البلد كله .

في هذا الوسط يرى سيد درويش النور ، وبعد بضع سنوات من ذلك يرسله ابوه وهو نجار الى مدرسة في الحي تعلم القرآن . ثم ما يلبث ان ينقله الى رأس التين حيث يبقى حتى دخوله المعهد الديني . وفي هذا الفرع الاسكندري من الازهر ، تظهر مواهبه الموسيقية ويصبح مدة من الزمن مؤذناً لمسجد الشوربجي . وفي اثناء ذلك كان سيد درويش ، وقد اصبح في الرابعة عشرة من عمره ، يجد لذة في جو الاجتماعات الشعبية التي تعقد في الحي — حيث كان يلقي بعض القصائد ويرتل سوراً من القرآن الكريم لقاء بعض دريهمات تعطى له اجراً على تسلية المدعوين .

ولكن ذلك لم يكن ليروق والدته الحاجة ملوك الرهيبة ، ولا المعهد الذي ينتمي اليه والذي ما لبث ان طرده بحجة عدم مثابرته على العمل . ولم يكتف سيد درويش بهذا القدر من تعقيد حياته ، بل زاد الطين بلة بأن تزوج ووضع نفسه في السادسة عشرة من عمره تحت عبء اعالة امه واخواته وامرأته التي ما لبثت ان حملت منه . والاكثر من ذلك ان اي عمل لم يرق سيد درويش الذي اختار حياة الفنان .

ولكن حالة الفنان الذي كان يسهم بطريقة فاضحة في الانحلال الخلقي ، لم تكن لتثير الحسد في ذلك العصر . وكان على المرء ان يحس تحت الرتابة السطحية ، قوة هذا الفن حيث لا قيمة للكلمة الا بجرسها الموحي ، وان يفهم السحر المثير لهذا اللحن المشدد عمداً بالطبول والصنوج ، والصناعة الملموسة في انغام حادة تتيه في ارتجالات موحية ، ولطيف إيحاءات الآلاتية الذين يجعلون الجسد في حالة انبساط شيطانية بتكراراتهم المعيبة . ويجب على المرء ان يطلع على الخبايا العميقة لهذا الفن الذي يسحر وينشي ويخدر بما لايقل عن الكحول او الحشيش ، لكي يفهم انفعالات الفتى سيد درويش الذي اخذ يتردد الى

حانات البلد الوضيعة بلباس رجال الدين وبصحبة موسيقيين اصبح المخـــدر لديهم وسيلة لاستدرار وحيهم .

ولما يئس سيد درويش بعد ان عجز عن اعالة افراد عائلته بالخمسة القروش التي كان يحصل عليها ، بالرغم من الجهود التي كان يبذلهـا طوال السهرة ، عول اخيراً على البحث عن عمل خارج الحقل الفني ، وما لبث ان وجد عملاً في احدى ورشات البنـاء . فعمل مورقاً واخذ يغني على الصقـــالات ليسلي نفسه ، واذا بوكيل الورشة يلاحظ زيادة في انتاج العمال الذين كانوا يزدادون نشاطاً لدى سماع ألحانه الموقعة ، وانتهى الامر بهذا الوكيل ان أعفاه من الاعمال اليدوية على شرط ان يداوم على الغناء .

وكان بإزاء الورشة مقهى ، ويحدث ان يجلس يوماً على سطحه اخوان من عائلة عطالله ، فيسمعان الغناء ويعجبان به ويطلبان رؤية صاحبه . كان احدهما ممثلاً والآخر مدير مسرح ، وكانا يعدان سفرة الى بلاد الشام والى بيروت خاصة . هل كان الشاب مستعداً للحـاق بهما ؟ لقد كلف بالغناء بين الفصول لتسلية الجمهور لقاء اجر ضئيل في اول الامر . وهكذا فان الشيخ سيد درويش ، الذي ما يزال يلبس القفطان والعمة ، يركب البحر في الاسكندرية في الوقت الذي كانت امرأته (التي سيطلقها فيما بعد) تضع ابنه محمداً . وهكذا دخل سيد درويش عالم المسارح والملاهي ، وهو العالم الذي سيصبح عالمه المفضل فيما بعد .

ولكن الجمهور اللبنـاني لم ينس تألق الشيخ سلامـة حجازي الذي اثار صوتـه حماس الجماهير في سوريا ومصر والذي اضطر في بيروت ، قبل ثلاث سنوات من ذلك ، ان يغني بصورة مرتجلة على الرصيف امام الصالات الزاخرة بالناس الذين كانوا ينتظرونه .

ولم يلبث الاخوان عطالله ان افلسا . ومع ان سيد درويش قد اضطر في اواخر سنة ١٩٠٩ الى ان يبرق الى عائلته لترسل اليه ما يمكنه من العودة للاسكندرية ، فانه لم يضع وقته سدى . لقد كان الحكم العثماني يشجع اختلاط اجناس البشر مما جعـل الاساليب الموسيقية الشرقية كلها ممثلة في مدينة بيروت . وقد تعلم سيد درويش كثيراً في هذا البلد .

ولكنه اضطر الى العمل من جديد في المقاهي التي تقوم على قناة المحمودية ، حتى ان صهره منعه من ولوج منزله وهدد بطلاق اخته اذا هو لم يعزف عن هذا النهج من الحياة . وغلب سيد درويش على امره وقبل عملاً مكتبياً ، ما لبث ان تركه ليذهب الى سوريا من جديد . وبعد سنتين من ذلك وبعد ان اصاب نجاحاته الاولى ، عاد الى بلاده وقد اعتورها التبدل ؛ وكان في الثانية والعشرين من عمره وكانت الحرب العالمية الاولى على الابواب .

كانت الاسكندرية تعج بالاجانب الذين قلما كانوا يكترثون بالغليان المتعاظم والمؤذن بان مصر قد وعت نفسها .

لقد تحكم اللورد كرومر بمصير وادي النيل مدة ربع قرن بدون ان يعرف كلمة عربية واحدة ، وكان يزعم لدى رحيله بان الحركة القومية ان هي الا من بنات الخيال ، ولم يكن ثمة الا طريقة واحدة للجواب على مثيري الشغب : المثابرة على واجباتنا ازاء هذا الشعب والضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه التجاوز على القانون ! ومع الاسف فان ارشاداته اتبعت حرفياً .

وفي سنة ١٩١٤ كان الخديوي عباس حلمي في استانبول وقد حالت الظروف دون عودته الى مصر ، فارتقى العرش عمه السلطان الدمية حسين كامل . وبدأ عهد الحماية الكريه ،فاهلن المفوض السامي السير هنري مكماهون الاحكام العرفية، وحظر المظاهرات العمالية ، وصادر الرجال والمؤن . وتدفق على البلاد المصرية ما يقارب المليون من جنود الامبراطورية . وكانت تلك فرصة طالما حلم بها المستغلون ، الكبار منهم والصغار ، الذين استفادوا على الرغم من وجود الرقابة .

وفي خلال ذلك كان سيد درويش قد اصبح فناناً كبيراً . صحيح انه ما يزال يعمل في البارات ذات السمعة المشبوهة ، ولكن المقاهي الكبيرة ، كالمنصورة والشيبان والسلام ، التي يرتادها نخبة من الزبائن مع ان برامجها ليست على مستوى رفيع ، بدأت تتجاذبه . واضحى سيد درويش في مصاف فناني القاهرة كاللاوندية واسماء القمسارية وابراهيم القباني .

ويمتاز سيد درويش عن هؤلاء بانه لا يستهدف التطريب فقط ، وان اسلوبه طريف واخاذ . وفي حين ان زملاءه يضيعون في متاهات من الارتجال تجعل دور الملحن ثانوياً ، فان سيد درويش لا يحاول ان يخلب سامعه بمقدرته التقنية فقط . انه يشدد او بالاحرى يبتدع صلة بين انغامه وبين معاني الكلمات التي هي بمثابة الدعامة لها ، صلة تفرض نفسها بلا ريب على المغنين الاوربيين ، ولكنها قبل سيد درويش كانت مفقودة عملياً في الشرق، حيث يحدث ان قصيدة يأس تغنى بلحن راقص ، وحيث لا يهتم بالكلمات الا للتمتع بالجمال المجرد للغة من خاصيتها التأثير في النفس . وقد وضعت هذه الثورة ، وهي ثورة بكل معنى الكلمة ، الموسيقى على مستوى ان لم يكن فنياً فهو على الاقل اشد روحانية ،

ووضعت الاسس لنهج موسيقي «مصفّى» لم يلبث ان كوّن مدرسة .

ثم نرى الشيخ سيد درويش ينساق في تيـــار وطني يعم البلاد . فهو مرة يستوحي شعاراً كهذا الشعار المأخوذ عن مصطفى كامل : « بلادي بـلادي لك حبي وفؤادي » ، او قصيدة من تلك القصائد التي كانت تعج بها الصحافة العربية آنذاك ، كقصيدة « مصر والسودان » التي تطالب بالوحدة الاساسية بين البلدين لمواجهة المؤامرات البريطانية . ولما منعت السلطات ذكر اسم الخديوي المخلوع لجأ سيد درويش الى وسيلة كلاسيكية يلجـأ اليها المغنون في البلاد المغلوبة على امرها . فكان يبدأ كل شطر من اغنية بريئة في الظـاهر بالحروف التي تكون اسم ع ب ا س ـ ح ل م ي ، كهذه الاغنية مثلاً :

عواطفك دي اشهر من نـــار بس اشمعنى جـافيتني يا قلبك
انت اللطف وليه احتـــار سيد الكل انا طوع اوامرك
حالي صبح لم يعرض حبيب لوم النـــاس زودني لهيب
ما قلت ان الوصل قريب يـــا مليكي والامر لربك

ولكن بما ان سيد درويش هو فنان قبل ان يكون رجلاً سياسياً ، فاننا لا نستغرب ان اغنياته لن تصطبغ اكثر من ذلك بهذا اللون ولا يلبث ان يعود الى التغني بجمال احدى صديقاته ، جليلة الرائعة ، التي تضعف مع ذلك ازاء اغراءات احد صياغ المحلة . فيغتاظ سيد درويش ويشرح القضية كما يتمثلها في اغنية فجة تنتشر في ارجاء المدينة مثيرة الدموع وعودة جليلة التي سوف تظل الى جانبه حتى آخر ايامها .

لقد وجد النهج اللازم لارضاء الجمهور الاسكندري ، وهو نهج جديد ومع ذلك فان اساليب تعبيره تبقى اصطناعية الى اقصى حد . وتخته يتألف من نصف دزينة من الموسيقيين يعزفون على الكمان والقانون والعود وآلات الضرب كالدربكة والصنوج وتصحبهم جوقة من الأصوات النسائية . وهو نفسه كان يعزف على العود في المقاهي وتحت السرادقات التي ينصبونها في الهواء الطلق بمناسبة الاعياد خلال تقديم اغنياته الجديدة في شكل الموشحات والادوار والطقاطيق المعهودة .

في سنة ١٩١٧ كان سيد درويش قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقـد اخذت شركات تسجيل الاسطوانات ، التي جنت ارباحاً طائلة من اغانيه ، تشجعه على القدوم الى القاهرة التي كانت على ما يظهر تمد له ذراعيها . والواقع ان سيد درويش كان يتوق الى

مغادرة مسقط رأسه حيث كانت حياته العاطفية تتعقد ، والى التخلص نهائياً من المقاهي والاجتماعات الفنية والاصدقاء ، والى نسيان موت زوجته الثانية التي طلقها بدون حق . ولكنه كان يتردد .

وفي هذه الاثناء يتعرف سيد درويش في مقهى الحميدية الى جورج ابيض احد كبار ممثلي المأساة في نهضة الادب العربي ، فيقذف الشيخ في تيار يجترفه في بادىء الأمر ولكنه لا يلبث ان يتخلص منه ، ويؤكد انه احد كبار العاملين على تجديد البلاد .

كان جورج ابيض من اصل لبناني ، وقد ارسلته الحكومة المصرية الى اوربا لدراسة المسرح . فلما عاد الى بلاده ، كان يتحرق شوقاً الى تعريف مواطنيه بالاشياء الجميلة التي رآها وعاشها هناك . غير انه في سنة ١٩١٧ فهم ان الدراما وحدها لا تكفي لاثارة حماس الجماهير الشرقية . ولما كان قد استمع الى اغاني سيد درويش فانه عرض عليه الغناء بين فصول مسرحية « لويس الحادي عشر » التي كان يمثلها على مسرح الحمراء . فقبل سيد درويش ، واستقبل الجمهور الذي كان قليل الاكتراث بالتمثيل اغنياته بهتافات صاخبة .

واصيب جورج ابيض بالخيبة ، ولكنه فهم انه لكي تصبح تمثيلياته مقبولة ، يجب ان تكون « مرصعة » بالموسيقى . وطوى صفحة « لويس الحادي عشر » ، واعتزم تقديم « فيروز شاه » على احد مسارح القاهرة بعد ان عهد بتلحينها الى سيد درويش باجر قدره عشرون ليرة . وتحمس جورج ابيض لهذه التمثيلية التي تؤذن في الواقع بولادة الاوبريت المصرية ، واعدها للتمثيل ؛ ولكن « فيروز شاه » فشلت فشلاً ذريعاً .

وفي هذه الاثناء نزع سيد درويش العمة واعتمر الطربوش واستبدل الطقم الافرنجي مع سلسلة الساعة والياقة بالقفطان ، وذلك لكي يفرض شخصيته على عالم العاصمة الفني . وقد سكن باب الخلق في بيت وضيع تقاسمه مع موظف صغير من موظفي المكتبة الوطنية . واصبح الآن يغني في كازينو البوسفور ، ومع انه كابد مصاعب جديدة (اقام سلامة حجازي حفلة لمساعدته على انتشال ميزانيته من الغرق) ، فان طريقه قد تحدد . وكان من ثقته بنفسه انه انتزع في احدى الامسيات العود من يدي الاستاذ محمد المسلوب ، وهو فنان رفيع القدر في ذلك الوقت ، وصرخ بوجهه امام الناس : « هو انت كده يا شيخنا . هات العود هات . اذا كان عم المسلوب بالشكل ده يبقى ما فيش غير ابو السيد . اسمع يا عم الموسيقى » .

كان ذلك في عصر ما بعد الحرب المليء بالحدثان ، اذ نلفي الشعب ساخطاً من جراء

ارتفاع الاسعار وقانون الطوارىء واخطاء حكم وينفيت بقبوله بمبدأ تحويل مجرى نهر النيل لتأمين ري الأراضي السودانية. كان هذا الشعب يحس بنزعة مجنونة نحو التنفيس عن كربه، والضحك حتى القهقهة ، ويجد مبتغاه في الاغاني الخلاعية والروايات الهزلية التي تقدمها مجموعة من المسارح الصغيرة . فنجدفرقة نجيب الريحاني في الاجبسيانا وبالقرب منها نلقى كازينو باريس وفيه فرقة امين صدقي التي تزاحم الاولى مزاحمة تتسم بالسذاجة والقسوة ، والى جانب هاتين الفرقتين نجد فرق الكسار واولاد عكاشة ومنيرة المهدية .

ووجد سيد درويش ، الذي بدأ يكتب لجميع هذه الفرق ، في هذا الجو الحقل المؤاتي لتفتح عبقريته ، وتمكن من وضع الاسس لنوع يكون خطوة جدية الى الامام نحو رفع مستوى الشعب الثقافي والاخلاقي . ولم يكن هذا النوع سوى الاوبريت المصرية .

وفي خلال ذلك يلتقي سيد درويش الشاعر الزجلي المتوثب بديع خيري ، الذي يعبر عن مطالب رجل الشارع وحاجاته في عبارات يزيدها الشيخ توترا بواسطة الموسيقى وهكذا فان اغانيهما تمثل مرةً السقاء ذا الصوت الجميل ، ومرةً الصانع الصغير او العامل الذي ينوء تحت عبء العمل المرهق ، ومرةً الموظف الذي اشترك في الاضراب العام سنة ١٩١٩ فوجد نفسه محروماً من مرتبه الضئيل .

كان سيد درويش يعمل في اكثر الاحيان على اساس نصوص مكتوبة ، ولكن كان يحدث ان وقائع يومية صغيرة من حياة هذا الشعب ، الذي كان يحبه ويفهمه ، تكفي لالهامه. ففي مساء يسمع صوت حمال في جزيرة بدران حيث كان يسكن، فيستفزه الحماس ويغادر المنزل ويتبع هذا اللحن الخام الرائع من شارع الى آخر ، وفي بولاق يسمع صوت بائع متجول فينصت اليه يغني بلهجة مصر العليا « عجائب تمره » ، وفي المساء ذاته يروي تجربته الى بديع خيري ، فتولد الاغنية الشعبية :

مليحة جوى الحلل الحناوى رخيصة جوى الحلل الجناوى

وفي ذلك الحين يدخل سيد درويش الاوساط الأدبية ويجد نفسه في عداد اكبر اسماء المسرح الشرقي في ذلك العصر . ويتردد بصورة مستمرة على حفلات الاوبرا في القاهرة حيث يشاهد الفنانين الأجانب .

وفي سنة ١٩٢١ اصبح دخله هائلاً: ثلاثمائة جنيه في الشهر غير حقوق تسجيلاته التي لا تعد ولا تحصى . ويطلب منه الاخوان عكاشة تلحين تمثيليتهم «شمشون ودليلة» التي ستمثل

على مسرح الازبكية، فيطلب الف جنيه بلا زيادة ولا نقصان، ولكنهم عجزوا عن تدبير المبلغ وتعاقدوا مع زميل كبير له ، قبل بسرور مبلغ مائة جنيه .

كان لا يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره عندما اصابته هذه الشهرة ، فانتشى بها واعتزم تأليف فرقته الخاصة التي قدم بواسطتها « العشرة الطيبة » لمحمود تيمور، فكبدته هذه التمثيلية مصاريف باهظة ، ومع ذلك فانها لم تنل حظوة الجمهور الموالي للاتراك بتلميحاتها المزعجة الى مماليك العهود الماضية . ثم قدم « شهرزاد » لبيرم التونسي ، الذي الهب الجماهير بعد عودته من المنفى باغانيه الوطنية مثل « اليوم يومك يا جنود» و«احسن جيوش في الامم جيوشنا » ، ثم قدم « الباروكة » وهي الترجمة العربية لتمثيلية « لا مسكوت » لادمون اودران .

غير ان سيد درويش كان سيء الادارة ، فانه على الرغم من شهرته ومن انتاجه الغزير (عشرين اوبريت) لم يكن لديه في اواخر ايامه سوى عوده وفونوغرافه العتيق . وعلى الرغم من فشل مشروعه التمثيلي بسبب سوء ادارته ، فانه لم ييأس بل رأيناه ينصرف نحو الكتابة في الصحافة ليرد بلا ريب على الذين كانوا يرهقونه بانتقاداتهم باسم المحافظة على التقاليد . وتحت امضاء « خادم الموسيقى » بدأ بنشر كتاب متسلسل عن الموسيقى في « مجلة النيل » . غير ان عبقريته المجددة لم تمتد الى الحقل الادبي ، فيضطر الناشر محافظة على المستوى العلمي لمجلته ان يلجأ الى حيلة . فيتوقف عن نشر مقال سيد درويش المتسلسل ويضع مكانه مقالاً يطالب بالتتمة بصورة ملحة ، — الامر الذي يثير فضول القراء .

وفجأة وفي اثناء زيارة لمسقط رأسه ، حيث اتى لاعداد مظاهرة موسيقية على شرف سعد زغلول ، الزعيم العائد نهائياً من المنفى والذي كان يجسد الوعي القومي آنذاك ، — داهمته المنية .

كان في الثانية والثلاثين من عمره وكان يهم بتنفيذ مشروع له ، وقد ادى شغله عليه (بالاضافة الى نهج حياته الجهنمي وحالته الصحية المضطربة — فهو لم يتوصل ابداً الى التخلص من الادمان على المخدر الذي اعتاده منذ صباه) الى تقويض حياته . فبالاشتراك مع اميل عريان ، مخترع البيانو الشرقي ، فكر في تأسيس شركة تجارية تحمل اسم « اغاني الشعب » غايتها تسجيل الاغاني ذات الاسلوب الجديد وطبعها ونشرها . وقد كان ذلك بالنسبة للعصر وللبلاد مشروعاً ثورياً ، وعلى الاخص ان احد بنود الاتفاقية ينص على ان

الاغاني المذاعة سوف تمكن عازف البيانو المرافق من العزف بيديه ، دون ان تضطر اليد اليسرى من تكرار ما عزفته اليد اليمنى ، بل تخضع لقواعد الايقاع الاوربي .

ان تلاميذ الشيخ سيد درويش ، وعلى رأسهم المغني الشهير محمد عبد الوهاب ، جهدوا وهم ما زالوا يجهدون في متابعة عمله . واذا كان تنقيبهم المرير عن موسيقى كلاسيكية عربية مائة بالمائة يثير الابتسام فانهم بلا ريب لا يتمشون دائماً على خطة المعلم . فلقد كان اهتمام سيد درويش الاساسي ينصب على تنمية الاساليب التقليدية لا على نسخ الالحان الاوربية ، وكان دافعه الاكبر التعبير عما يرى ويشم ويشعر وان يقاسم الجماهير هذا الشعور . وبما ان العربي قد عبر دائماً عما يخالج نفسه بواسطة الشعر ، فقد كان سيد درويش قبل كل شيء شاعراً يلوذ بصورة غريزية الى الكلام ، كلامه او كلام غيره ، ليشدد عليه بواسطة الموسيقى .

لقد كشف سيد درويش ببساطة وعفوية عن مشاعر عصره وآلامه وآماله ، ليس فقط لاقلية مثقفة بل لشعب بأجمعه ، – هذا في الوقت الذي كان فيه الشاعر الكبير احمد شوقي ، وقد نودي به اميراً للشعراء في سنة ١٩٢٧ ، يرى من الحكمة والسياسة التعبير بواسطة قصائد قليلة العفوية ، وفي الوقت الذي لم يستطع فيه خليل مطران نفسه ان يحرر الشعر من كلاسيكية متصلبة وعقيمة .

ومع ذلك فان عظمة سيد درويش تنبثق ايضاً عن حقل آخر . ففي بلاد ما زالت الاغنية فيها – ولا نقول الموسيقى – التعبير الاكمل عن الروح البشرية ، كان عمل الشيخ سيد درويش عمل تجريد وتنقية . فلقد حدد هذا الاباحي الثائر والمحبب الطريق لرفع مستوى بلاده الاخلاقي .

وقد دفن سيد درويش في مقابر المنارة بالاسكندرية ، وكتب على شاهده :

يا زائري لا تنسني من دعوة صالحة
وارفع يديك الى السما واقرأ لروحي الفاتحة